الباب الخامس

الحق فى المعاملة

١ - الفصل الأول :

فى معرفة الحق وتحديد معالمه .

٢ - الفصل الثانى :

فى الحكم بين الناس بالحق .

٣ - الفصل الثالث :

فيما أوجبه الله للناس من حق .

٤ - الفصل الرابع :

فى الأسباب التى تعين الناس على القيام بالحق .

٥ - الفصل الخامس :

فيما يقع بين الناس بغير الحق .

الفصل الأول

فى معرفة الحق وتحديد معالمه

«الأصل فى معرفة الحق الكتاب والسنة.

فلابد أن نؤمن بالكتاب ونتبع ما أنزل الينا من ربنا جميعه ولا نؤمن ببعض الكتب ونكفر ببعض، وتلين قلوبنا لاتباع بعض السنة وتنفر عن قبول بعضها ـ بحسب العادات والأهواء. فإن هذا خروج عن الصراط المستقيم، إلى صراط المغضوب عليهم والضالين[1]».

وما أنزل إلينا من ربنا هو الحق. ومنه تتحدد معالمه وتعرف أصوله التى تكون أسسا للنظم العادلة وتتسع لتحقيق مصالح الناس فى كل زمان ومكان. وبرهان ذلك أمران: أحدهما: أن الأصل الأول والمصدر العام للإسلام وهو كتاب الله تعالى لم يتعرض فيه لتفصيل الجزئيات بل نص فيه على الأسس الثابتة والقواعد الكلية التى يبنى عليها تنظيم الشئون العامة للدولة. وهذه الأسس والقواعد قلما تختلف فيها أمة عن أمة أو زمان عن زمان. أما التفصيلات التى تختلف فيها الأمم باختلاف أحوالها وأزمانها فقد سكت عنها لتكون كل أمة فى سعة من أن تراعى فيها مصالحها الخاصة وما تقتضيه حالها.

ففى نظام الحكم لم يفصل القرآن الكريم نظاما لشكل الحكومة ولا لتنظيم سلطانها ولا لاختيار أولى الحل والعقد فيها. وإنما اكتفى بالنص على الدعائم الثابتة التى ينبغى أن تعتمد عليها نظم كل حكومة عادلة ولا تختلف فيها أمة عن أمة فقرر العدل فى قوله سبحانه: ﴿**وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل**﴾. والمساواة فى قوله سبحانه: ﴿**إنما المؤمنون إخوة**﴾. أما ما عدا هذه الاسس من النظم التفصيلية فقد سكت عنها ليتسع لأولى الأمر أن يضعوا نظمهم ويشكلوا حكومتهم ويكونوا مجالسهم بما يلائم حالهم ويتفق ومصالحهم، غير متجاوزين حدود العدل والشورى والمساواة.

---

(١) رفع الملام عن الائمة الاعلام: تأليف الشيخ تقى الدين أحمد بن تيمية. منشورات دار مكتبة الحياة. بيروت.

وفى القانون الجنائى : لم يحدد عقوبات مقدرة إلا لخمس فئات من المجرمين . الذين يحاربـون الله ورسـوله ويسعون فى الارض فسادا . والذين يقتلون النفس بغير حق . والذين يرمون المحصنات الغافلات . والزانية والزانى . والسارق والسارقة .

أما سائر الجرائم ـ من جنايات وجنح ومخالفات ـ فلم يحدد لها عقوبات وإنما ترك لأولى الأمر أن يقدروا عقوباتها بما يرونه كفيلا بصيانة الأمن وردع المجرم واعتبار غيره ، لأن هذه التقديرات مما تختلف باختلاف البيئات والأمم والأزمان فمهد السبيل لولاة كل امة أن يقرروا العقوبات بما يلائم حال الامة ويوصل إلى الغرض من العقوبة . وأرشد الله سبحانه إلى أصل عام لا تختلف فيه الامم وهو أن تكون العقوبة على قدر الجريمة فقال عز من قائل : ﴿**وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به**﴾ . وقال : ﴿**فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم**﴾ .

وفي قانون المعاملات : اكتفى بالنص على إباحة ما يقتضيه تبادل الحاجات ودفع الضرورات فأحل البيع والإجارة والرهن وغيرها من عقود المعاملات وأشار إلى الأساس الذى ينبغى أن تبنى عليه تلك المبادلات وهو التراضى فقال عز شأنه : ﴿**ياأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم**﴾ .

أما الاحكام التفصيلية لجزئيات هذه المعاملات فلولاة الامر فى كل أمة أن يفصلوها حسب أحوالها على أساس التراضى . وكذلك اكتفى بالنص على منع المعاملات التى تفضى إلى النزاع وتوقع فى العداوة والبغضاء فحرم الربا . والميسر على أساس دفع الضرر وقطع أسباب الشحناء وسكت عن تفصيل الأحكام الجزئية لهذه المعاملات ليتسنى أن يكون تفصيلها فى كل أمة على وفق حالها .

وفى النظام المالى : فرض فى أموال ذوى المال وعلى رءوس بعض الأنفس ضرائب[1] وجههـا فى مصارف ثمانية مرجعها إلى سد نفقات المنافع العامة ومعونة المعوذين وترك تفصيل الترتيب لهذه الموارد وتصريفها فى مصارفها لكل امة تتبع فيها ما يلائمها .

(١) فرض فى أموال ذوى المال «حقوقا وصدقات» وجهها فى مصارف ثمانية . . . ولعل هذا ما يريده الشيخ رحمه الله من قوله : فرض ضرائب .

وفى السياسة الخارجية : أجمل علاقة المسلمين بغيرهم فى قوله سبحانه ﴿**لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون**﴾ . فالقرآن الكريم لم ينص فى الشئون العامة على تفصيل الجزئيات . وما كان هذا لنقص فيه أو قصور وإنما هو لحكمة بالغة حتى يتيسر لكل امة ان تفصل نظمها على وفق حالها وما تقتضيه مصالحها على ألا تتجاوز فى تفصيلها حدود الدعائم التى ثبتها . فهذا الذى يظن أنه نقص هو غاية الكمال فى نظام التقنين الذى يتقبل مصالح الناس كافة ولا يحول دون أى إصلاح .

والثانى : ان الإسلام أبان بكثير من أحكامه وحكمه وآياته أن غايته هى تحقيق مصالح الناس ورفع الضرر عنهم ، ومقصوده اقامة العدل بينهم ومنع عدوان بعضهم على بعض ، يتبين هذا من حكم التشريع التى نص عليها مع الأحكام فى مثل قوله تعالى : ﴿**ولكم فى القصاص حياةٌ**﴾ . وقوله سبحانه : ﴿**إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون**﴾ . وقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى منع بيع التمر قبل أن يبدو صلاحه : «**أرأيت إذا منع الله الثمرة بم يأخذ أحدكم مال أخيه**» . بل إن العبادات نفسها قرن التكليف بها بما يدل على أن المقصود منها إصلاح حال الناس ، كما قال تعالى فى حكمة الصلاة : ﴿**إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**﴾ . وفى الصيام : ﴿**لعلكم تتقون**﴾ . وفى الزكاة : ﴿**خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها**﴾ . وفى الحج : ﴿**ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام**﴾ . وينطق بهذا قوله : ﴿**يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر**﴾ . وقوله عز شأنه : ﴿**ما جعل عليكم فى الدين من حرج**﴾ . وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «**لا ضرر ولا ضرار**» وقوله صلى الله عليه وسلم : «**بعثت بالحنيفية السمحة**» .

واذا كان الاسلام غايته ومقصده إصلاح الناس وإقامة العدل فيهم وخطته وطريقته اليسر بهم ورفع الحرج عنهم فهو بلا ريب كفيل بكل سياسة عادلة ويجد كل مصلح فى

أصوله وكلياته متسعا لكل ما يريد من إصلاح ولا يقصر عن تدبير شأن من شئون الدولة[1].

والحق الذى أنزله الله منه فرائض تزكى النفس وتطهرها ومنه قواعد تحدد ما يحل وما لا يحل. ولا غنى بهذا عن ذاك، وتأتى الأحداث المتجددة لساحة الحياة. وفيها فرائض الحق وقواعده قد أنزلها الله ليقوم الناس بالقسط. فلا يكون اجتهاد الانسان فى تحرى العدل مطلقا بلا ضوابط مُنْسَاباً بلا حدود. بل هو محكوم بحدود لها منارات وبينات تمنع من التجاوز وتقى من العثرات.

﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾. ومع البينات والكتاب والميزان يجد الناس هدايتهم إلى إقامة العدل. وإن هبطت بهم شهواتهم وإيثارهم العاجلة رفعتهم عقيدتهم فخافوا مقام ربهم وسعوا سعى الاخرة. فطابت نفوسهم باتباع الحق ونعمت بإقامة العدل. وكان اجتهادهم محكوما بضوابط الشرع وقواعد الحق معصوما من اتباع الهوى. مأجورا وإن أخطأوا. ومما يعين الناس على القيام بالحق وتحرى العدل فى معاملاتهم تطبيق ما جاء من الحق فى الاعتقاد والتربية والتعليم وإقامة الفرائض التعبدية والفضائل والأخلاق فإن الإنسان هو محور الإصلاح وهو المخاطب بالتطبيق فلابد من صلاحه واستقامته.

واذا كنا نملك الاسس الثابتة والقواعد الكلية. فإن الفكر الإسلامي مطالب دائما أن يعالج الأحداث المتجددة بفطرة الدين. مستعينا بأصوله وقواعده. فانه من الخطأ بل من الخطيئة أن تثار قضايا الدين بعيدا عن الواقع أو يعالج الواقع بغير فطرة الدين.

«وسبيل ذلك هو الاجتهاد السليم الصحيح القائم على كمال النظر وحسن البصيرة وسلامة الوزن والإخلاص فى ذلك والصدق فيه ووسائله الآن أيسر تحصيلا منها فى القرنين الأولين؛ فالسنة قد جمعت وكثرت منها الكتب وبخاصة فيما يختص منها بالأحكام. والمكتبات بها ذاخرة وتفاسير القرآن بألوانه المختلفة، وعلى الأخص ما يتعلق

---

(١) السياسة الشرعية أو نظام الدولة الإسلامية فى الشئون الدستورية الخارجية والمالية. عبدالوهاب خلاف.

بالأحكام من آياته وما للسلف فيها من آراء مطبوعة ميسرة وكتب الفقه وأصوله تزخر بها المكتبات. والحصول عليها يسير، والإلمام بما يحويه كل ذلك مستطاع، وتعلم العربية بالقدر المطلوب للفهم والحكم ممكن ميسور الوسائل. وليس ما يمنع من إخلاص النية والجد فى التحصيل واكتساب المعرفة. وقيام الدولة الاسلامية بتوفير الامكانيات لتحقيق ذلك والترغيب فيه»[1].

«فان الإسلام بما نص عليه من الأحكام وبما وضعه من الاصول للاستنباط وبما أرشد إليه من اعتبار المصالح، فيه غناء لكل دولة إسلامية لو أن المسلمين وفقوا وكان لهم فى كل عصر جمعية تشريعية[2] مؤلفة من خيرة أهل العلم بأصول الدين والبصر بأمور الدنيا وعهد إليهم أن يسايروا تطورات الناس والأزمان ويستنبطوا للوقائع المختلفة الأحكام التى تتفق ومصالح الناس، ولا تخالف أصول الدين ولكنهم فرطوا فى هذا فتصدى للاستنباط من هو غير أهل له وعمت فوضى الاجتهاد الفردى واضطروا لمعالجة هذه الفوضى بسد باب الاجتهاد والاقتصار على فهم وتطبيق ما استنبط الائمة المجتهدون السابقون. وكان من نتائج هذا الوقوف تركهم وما وقفوا عنده ومسايرة الزمن بالقوانين والنظم التى تقتضيها المصلحة[3]».

إن الناس إذا لم تسعفهم المؤسسات المنسوبة إلى دين الحق بالبيان فى الأحداث المتجددة والقضايا المتلاحقة تخطفتهم أندية الباطل وأبعدتهم عن أصول دينهم بتذليل شئون دنياهم. ولأن يخطىء المسلمون فى الاجتهاد السليم الصحيح خير لهم من التبعية والمطاوعة لغيرهم. ولان يعيشوا بأجرِ الخطأ فى الاجتهاد خير من العيش بوزر القصد فى الاتباع. اتباع من يردهم عن دينهم، ويبعدهم عن أصوله ﴿وكيف تكفرون وأنتم تُتلىٰ عليكم آيات الله وفيكم رسوله﴾.

---

(١) الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية: للشيخ على الخفيف.

(٢) واضح أن الشيخ رحمه الله يقصد بقوله «جمعية تشريعية مؤلفة من خيرة أهل العلم»... فتح باب الاجتهاد بدليل قوله ويستنبطوا للوقائع المختلفة الأحكام التى تتفق ومصالح الناس فهى جمعية تجتهد فى استنباط الأحكام من أصول الشرع ولا تشرع.

(٣) السياسة الشرعية: للشيخ عبدالوهاب خلاف.

إن الامر ميسور لمن تحرى العدل ورغب فيه . وطلب الحق واجتهد فى التمسك به والحرص عليه . والدين هو الحق والعدل . فى جميع ما جاء به ودعا إليه . وهذه الكلية فى أمر الدين تحث المسلمين على مواجهة الأحداث المتجددة فى ثقة وبينة . فمقصد الدين هو اقامة العدل بين جميع الخلق .

«فإن الله سبحانه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل الذى قامت به الأرض والسموات . فاذا ظهرت أمارات العدل وأسفر وجهه بأى طريق كان فثم شرع الله ودينه والله سبحانه أعلم وأحكم وأعدل أن يخص طرق العدل وأماراته وأعلامه بشىء ثم ينفى ما هو أظهر منها وأقوى دلالة وأبين أمارة فلا يجعله منها ولا يحكم عند وجودها وقيامها بموجبها بل قد بين سبحانه بما شرعه من الطرق أن مقصوده إقامة العدل بين عباده وقيام الناس بالقسط فأى طريق استخرج بها العدل والقسط فهي من الدين ليست مخالفة له[1] .

فليثق المسلمون فى أنفسهم مع ثقتهم فى دينهم ليعالجوا - فى غير حرج - قضايا عصرهم بفطرة دينهم . وليخوضوا معركة الحياة وفى طريقهم نوران كتاب ، وسنة . فمهما اتسعت الحياة وتعددت أحداثها فان معهم من النور والتبيان فى كل عصر ما يرشدهم إلى الحق ويهديهم اليه وإلى طريق مستقيم . معهم من الثابت فى أمر دينهم ما ينير طريق المتغير فى حياتهم . معهم من القواعد والاصول ما يتسع لجزئيات الأحداث واختلافها فى الزمان وفى المكان . وما يجعل شريعتهم صالحة للتطبيق فى كل زمان ومكان . وبذلك تكون صلتهم بالحق الذى أنزله الله دائمة ومتجددة راشدة ومثمرة . ويستمد كل جديد فى دنياهم أسباب حياته من شمس دينهم ونور كتابهم . فلا تنفصل قضايا عصرهم عن الحق الذى أنزله الله وأمر أن يحكم به . بل تتصل به اتصال النبت المتجدد بأسباب الحياة واتصال الحياة بمصدرها فلا تحكم إلا بما أراها الله .

وبعد هذا التفصيل نعود فنقول : ان الأصل فى معرفة الحق وتحديد معالمه الكتاب

---

(١) الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية : لابن القيم .

والسنة : ﴿فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ .

والكتاب وحى . والسنة وحى . ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى﴾ . ومع الآيات لنرى ما تدل عليه وتدعو إليه .

الآيـــــــات

١ - ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ (البقرة : ١٤٧)

٢ - ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ (آل عمران : ٦٠)

٣ - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (النساء : ١٧٠)

٤ - ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ (الانعام : ١١٤)

٥ - ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾

(االتوبة : ٣٣)

٦ - ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ

ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ (يونس: ٩٤)

٧- ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ (يونس: ١٠٨)

٨- ﴿ الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الرعد: ١)

٩- ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾

(الاسراء: ١٠٥)

١٠- ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴾

(الكهف: ٢٩)

١١- ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ (فاطر: ٣١)

١٢- ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

(الشورى: ٢٤)

١٣ - ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (الفتح : ٢٨)

الحق الذى جاء من رب العالمين تعرف به حقائق الأشياء وتدرك به الغاية والمصير. ويتميز به الخبيث من الطيب. ويوضع بسببه الميزان ويدخل من يدخل الجنة ويحشر من يحشر فى النار.

وما من أمر ذى بال أو شأن من شئون الخلق إلا وجاءت فيه من الله كلمة الحق. وما كان رسل الله وأنبياؤه إلا ائمة حق ودعاة صدق وما نزل القرآن ولا حفظ إلا ليهدى الناس إلى الحق.

إن الذى خلق الخلق جميعا هو الذى يقول فيهم ولهم كلمة الحق أما المخلوق فعاجز محتاج لمن يهديه إلى الحق فى نفع وضر وحياة وموت وشهادة وغيب.

والله وحده هو الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى. هدى بالفطرة وهدى بالوحى، وهدى بالآيات البينات فى الأنفس والآفاق. وكل ذلك بالحق ومن أجل الحق. فمن ذا الذى يملك غيره أن يهدى إلى الحق. ان الذى يُبَلِّغ أو يُرشد من العباد إلى الحق إنما يرشد بوحيه. وتعليمه ورحمته وتوفيقه. ومن يحكم بالحق إنما يحكم بشرعه. ومن يهدى إلى الحق إنما يهدى بهديه:

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ (يونس : ٣٥)

ومن كانت الأرض قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه هو وحده الذى يملك أن يحق الحق وأن يقول الحق وأن يقضى بالحق وأن يجزى على الحق ثوابا أو عقابا.

ان الذى يحق الحق على الاطلاق هو الحى الذى لا يموت والذى يقول الحق فى الأمر كله من بيده الملك وهو غنى عن الخلق. والذى يقضى بالحق ويجازى عليه من أحاط بكل شىء علما وهو على كل شىء قدير.

لذا نرى الآيات ـ وهى تتحدث عن مصدر الحق. تذكر أنه لا يكون الا ممن له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين.

* ﴿ الحق من ربك ﴾.
* ﴿ قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم ﴾.
* ﴿ لقد جاءك الحق من ربك ﴾.
* ﴿ والذى أُنزل إليك من ربك الحق ﴾.
* ﴿ وقل الحق من ربكم ﴾.

هكذا يقترن إنزال الحق ومجيئه بعنوان الربوبية مضافا إلى ضمير المخاطب صلى الله عليه وسلم أو إلى ضمير الجمع (من ربكم). وهو ينبىء عن أمرين: الأول: أن الحق لا يكون إلا من رب العالمين لانه هو وحده الذى يخلق، وهو وحده الذى يرزق. وهو وحده الذى يوفق ويهدى من شاء هدايته إلى الحق وإلى طريق مستقيم، الثاني: أن العباد ـ وهم المخاطبون ـ بالحق الذى أنزل مربوبون. والحق من ربهم. والحق فى ذاته جدير أن يتبع وهو ما جاء إلا من ربهم الذى أنشأهم ورزقهم. فكونه الحق وكونه من ربهم داعيا إلى الإخلاص فى الطاعة والعبادة وحسن الاستقامة.

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ (الزمر: ٢)

والمراد بـ «الحق». فى كل ما ذكر. ما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم. وهو الحق من ربهم. فيعرف الحق من الكتاب الذى أنزل عليه ومن بيانه صلى الله عليه وسلم بقوله أو فعله أو تقريره. والبيان والمبيَّن وحى يجب أن يطاع وشرع يجب أن يتبع.

والوحى فى الرسالة الخاتمة مصون من التحريف والتبديل عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. لأن الله قد حفظه. ومن حفظه الله لا يضيعه الناس. وما استحفظوا عليه من قبل لم يحفظوه. واقترن الحفظ بالرسالة الخاتمة لأنه ليس بعد رسولها رسول، ولا بعد الكتاب المنزل عليه كتاب. فلو ترك للناس حفظه لضيعوه والتبست على الأجيال معالم الحق. وحفظه حفظ لرسالة الأنبياء جميعا. فهو الحق الناطق بما جاءوا به وما دعوا إليه.

ودين الحق هو الاسلام. وسبل معرفته رسول وكتاب. رسول قد حفظت سنته، وكتاب قد حفظت آياته.

ويمكننا ـ ونحن نتدبر الآيات التى تتحدث عن مصدر الحق ـ أن نقف عند امور:

الأول: أن الحق الذى يراد تبليغه للناس من قبل الله يرسل به رسولا من خلقه. يكون أسوة للخلق فى اتباع الحق. لا يسأل الناس أجرا، يبلغ رسالة الله فى صبر واحتساب وحسن توكل على الله. وما عليه الا البلاغ وعلى الله الحساب:

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ .... ﴾ (الشورى: ٤٨)

والرسول ـ وهو من البشر ـ له أجل محدود يلقى فيه ربه فيسأله عما أجيب به فيقول كغيره من الرسل ﴿**لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب**﴾. ﴿**يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب**﴾. (المائدة: ١٠٩). لا علم لهم بما يكون عليه أقوامهم من بعدهم ولا علم لهم بما تطويه صدور الناس وهم يعلنون إسلامهم. لا علم لهم إلا بما يعلمهم الله به. فالأمر لله من قبل ومن بعد: ﴿**الله أعلم حيث يجعل رسالته**﴾. فالله الذى أرسلهم بالحق هو الذى يحاسب على الحق وهو يعلم ما عليه الخلق.

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ۖ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (النور: ٦٤)

الثاني: أن الله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق. جعل الحق منتصرا ولو لم يتبعه إلا القليل من الناس. ظاهرا بحجته وسلطانه. منيرا بهدايته، وبيانه.

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة: ٣٣)، (الصف: ٩)

والله شهيد على ما أرسل به نبيه وكفى بالله شهيدا. **﴿هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا﴾**. شهيد كذلك على أن ما وعده به كائن. وأن دين الحق منتصر عال على كل ما خالفه. ولقد حقق الله وعده. بما مكن لدينه فى الأرض وبما أظهره من الحجج والآيات. ومن ير عندما دعا الرسول صلى الله عليه وسلم قومه إلى دين الحق فقالوا. **﴿إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا﴾**. من يرى ما صاروا إليه فى سنوات قليلة. وكيف طويت أمام مدهم وهم يتبعونه دولة الفرس والروم ووجدوا ما وعدوا به من نصر وعز. من يرى ذلك لا يشك لحظة فى انتصار الحق وظهوره.

والناس قد يحسبون أن انتصار الحق لا يكون إلا فى معارك الحرب والقتال ويفوتهم أن الحق منتصر دائما ولو انهزم الناس. فكم من معارك عجز الناس فيها عن تحقيق النصر. فانتصر الحق على المحاربين بآياته وبيناته فدخل فيه من جاء يحارب أهله ويغزو ديارهم.

وكم من ناس نقموا من أهل الحق فإذا بهم ـ وقد غزا الحق قلوبهم ـ يصبحون من أهله المجاهدين فى سبيله.

إن انتصار الحق فى المعاملة فى سلم أو حرب فى بيع أو شراء . فى أخذ أو عطاء . انتصار الحق فى ذلك كله برهان ثباته وبقائه . برهان شرفه ووفائه . ان هو قاتل أو عاهد . أو حارب أو سالم . أو صالح أو خاصم . معاملة المؤمنين به الأوفياء له أقوى فى الدلالة عليه من انتصارهم فى معركة أو فوزهم فى لقاء . فكم من معارك انتصر فيها صاحب قوة ولم يلبث نصره أن يتلاشى ويذهب جفاءاً . وما بقى من نصر لمنتصر فى حرب إلا ما قام على الحق ومن أجل الحق . بقى الحق الذى قامت الحرب من أجله يذكر به من قاتل فى سبيله . وذهبت حروب البغى مع أهل البغى نقمة على أهلها ومثلا وعبرة لمن جاء بعدها . فالمنتسب إلى الحق يُبْقى الحق ذكره ويعلى قدره بقدر إخلاصه له . وصدق اتباعه . والباطل يدمر أهله وهم يتبعونه ويركنون اليه . ولا يبقى إلا بقدر فتنة الناس به فاذا قذفته أمواج الحق ذهب جفاء ليس له من نفع أو بقاء . وإذا خُسِفَ به وبداره الأرض رأيت من فتنوا به وتمنوا مكانه بالأمس يقولون قولة أهل الحق :

﴿ .... وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (القصص : ٨٢)

وعندئذ يوقنون أن العاقبة لا تكون إلا لأهل الحق من المتقين . وقد يظن الناس أن سوء العاقبة وقف على قارون ومن كان على شاكلته ممن خلا من قبل وينسون أن سنن الله لا تتبدل ولا تتحول فى إزهاق الباطل وذهاب أهله :

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ .... ﴾ (الأنبياء : ١٨)

﴿ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ

﴿ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾ (محمد: ١٠)

والثالث: أن اتباع الحق ـ وقد عرف ـ مصدره ـ لا يعود نفعه إلا على من اهتدى به وأن مخالفته والبعد عنه لا تعود إلا على من ضل سبيله. والله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق غنى عن العالمين لا تنفعه طاعة متبع ولا تضره معصية مخالف.

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ (يونس: ١٠٨)

﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ (الانعام: ١٠٤)

وكفى بالرسول أن يبلغ ما أمر بتبليغه ويبشر وينذر كما أمره ربُّه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (النساء: ١٧٠)

الرابع: أن أكثر الناس لا يؤمنون بالحق. وتلك شهادة له وليست ضده. إن الله الذى أرسل نبيه قد أخبره:

﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

(يوسف : ١٠٣)

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ .... ﴾

(الانعام : ١١٦)

نعم هى شهادة له لأن الحق لا يَنَالُ شَرَفَهُ إلا من علم الله صدقَ نيته وشرفَ غايته . وكم من نبى حرص على هداية من أحب فلم يكن إلا ما أراد الله أن يكون . . وهو أعلم بالمهتدين . تلك شهادة للحق بأنه ليس عطاء يملكه عبد من عباد الله وإنما هو نور يقذفه الله فى قلب من يشاء ﴿**ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور**﴾ . ولم يستطع نوح عليه السلام أن يصنع شيئا لابنه . ولم يستطع سيد الخلق صلى الله عليه وسلم أن يحقق الهداية لعمه مع بذله النصح له وإبداء الحرص عليه .

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾

(القصص : ٥٦)

﴿ الٓمٓرٰ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

(الرعد : ١)

الخامس : أن فطرة الناس جميعا نزاعة إلى الحق وان لم يؤمنوا به . ونفوسهم مستيقنة به وإن جحدوه . فظلمهم لانفسهم بالكفر لا يُخْفِى خُضُوعَ فطرتهم للحق :

﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .... ﴾

(النمل : ١٤)

ولو كان الحق دخيلا على فطرة الناس لما آنست فى الناس منه أثرا وأنت تراه منهم وإن جحدوه. ولما رأيت فيهم منه دلالة فى معاملة وأنت ترى دلالته فى معاملتهم وإن لم يعلنوا إيمانهم به. بل قد تراه أحيانا مروءة عند ذى مروءة وإنصافا عند من لا يتوقع منه الإنصاف. ترى أعمالا وأعمالا عند أهل الكفر تنسب إلى الحق لا إلى الكفر. وما ذاك إلا من تأثير فطرة الحق التى فطروا عليها ودين الحق الذى ولدوا عليه «**وكل مولود يولد على الفطرة. وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**».

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم: ٣٠)

ولذا فان من يُقِمْ العدل بين الناس يجد عونه من فطرة الناس بعد عون الله عز وجل. ومن يَسْعَ بينهم بمكارم الأخلاق يجد منهم تقديرا واحتراما وإن لم يعلنوا إيمانهم بما يدعو إليه. وتلك شهادة بأن الحق ماكث فيهم نافع لهم وإن جحدوه أو أنكروه.

السادس: الناس جميعا مدعوون إلى اتباع شريعة الحق التى أُرسل بها خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم. رسول من عند الله إلى الناس جميعا. جاء بالحق للناس جميعا ﴿**قل يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم**﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (النساء: ١٧٠)

«المخاطبة بقوله: ﴿ **يا أيها الناس** ﴾. مخاطبة لجميع الناس والسورة مدنية، فهذا مما

خوطب به جميع الناس بعد الهجرة. لان الآية دعاء الى الشرع ولو كانت فى أمر من أوامر الأحكام ونحوها ـ لكانت: ﴿**ياأيها الذين آمنوا**﴾ ـ والرسول فى هذه الآية: محمد صلى الله عليه وسلم. وبالحق: شرعه[1].

وفى اتباع الشرع هداية لهم إلى الحق واستجابة لنداء ربهم:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

(الاعراف: ١٥٨)

السابع: ان الرسول صلى الله عليه وسلم قد خوطب بقوله تعالى: ﴿**الحق من ربك فلا تكونن من الممترين**﴾. جاء هذا فى سورة البقرة. وفى سورة آل عمران ﴿**الحق من ربك فلا تكن من الممترين**﴾. وفى سورة يونس: ﴿**لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين**﴾. وهذه الصيغة فى مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم ذات دلالة بالغة فى الدعوة إلى اليقين بأن ما جاء من عند الله هو الحق فإن الأدلة من الوضوح والبيان فى الكتاب المفصل والنبى المرسل بحيث لا ينبغى لأحد أن يمترى فى أنه الحق ﴿**أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين**﴾. (الانعام: ١١٤). الكتاب قد بين فيه الفصل بين الحق والباطل. وأهل الكتاب يعلمون ذلك وأدلة الحق لا تخفى على أحد. فان أدلته قائمة فى آيات الله فى الأنفس والافاق وهى تعاضد الآيات المنزلة فى الكتاب. وما كان من الله لا يتناقض ولا يختلف وما كان من عند غير الله يجد الناس فيه اختلافا كثيرا وتناقضا مع الزمن ينبىء عن أن ذلك من صنع البشر.

(١) المحرر الوجيز: لابن عطية.

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢)

فلا موضع لامتراء أو شك فى أن المُنزل من عند الله هو الحق. فلا سبيل لأحد فى معارضته أو مخالفته لأنه منزل من رب العالمين. ومن التكريم للرسول صلى الله عليه وسلم أن يقال له ﴿**الحق من ربك**﴾. هكذا بكاف الخطاب المنبئة عن عناية الله به ونصرته له ﴿**فلا تكونن من الممترين**﴾. «الممترين» هم الشاكون. والمرية: الشك. ونهى النبى صلى الله عليه وسلم فى عبارة اقتضت ذَمّ الممترين. وهذا يدل على أن المراد بالامتراء غيره. ولو قيل فلا تكن ممتريا لكانت هذه الدلالة أقل. ولو قيل فلا تمتر لكانت أقل. ونهى عليه السلام عن الامتراء مع بعده عنه على جهة التثبيت والدوام على حاله[1].

﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ (يونس: ٩٤)

وقد قال صلى الله عليه وسلم عند نزوله: «**لا أشك ولا أسأل بل أشهد أنه الحق**».

وعن ابن عباس رضى الله عنهما: لا والله ما شك طرفة عين ولا سأل أحدا.

والآية من بعد تنبىء عمن شك أو امترى وتخبر عن ثبات الرسول صلى الله عليه وسلم على الحق ويقينه به وصدعه بما أمر فى مواجهة الشاكين أو المكذبين.

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ

(١) المحرر الوجيز: لابن عطية.

﴿ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس: ١٠٤)

ولماذا خوطب الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿**فإن كنت فى شك**﴾. مع أن المراد غيره؟ إن الخطاب له «فيه من قوة التأثير فى القلوب ما لا مزيد عليه، بمثابة ما لو خاطب سلطان عاملا له على بلدته بحضور أهلها بوصاياه وأوامره الرهيبة فيكون ذلك أفعل فى النفوس»[1].

الثامن: يخطىء ويضل من يظن أن الافتراء على الله يُفَوِّتُ لأصحابه. أو يترك لمدع أن يدعى على الله وينسب إليه ما لا يليق به أو يصدر عنه. ويستحيل كل الاستحالة أن يقع الافتراء على الله من الرسل والأنبياء. وما كان الله ليؤيد من افترى عليه أو ينصر من كذب عليه:

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾

(الحاقة: ٤٤-٤٧)

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

(الشورى: ٢٤)

ان ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم لا إرادة له فيه ولا مقدرة له عليه:

(١) تفسير القاسمى.

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٨)

فثبات الحق فى نفسه عطاء من ربه وعلمه به تعليم من ربه.

﴿ .... وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾
(النساء: ١١٣)

فهل يمكن لباطل أن يتسرب إلى قلب من تعهده الله واصطفاه ؟ وهل يمكن لمثله أن يفترى وجميع ما جاء به مرجعه إلى الله ؟ وهل هناك مجال لافتراض أن يفترى مرسل على الله الذى أرسله وهو يعلم ما شرفه به وما أنزله عليه ؟ هل هناك مجال لافتراض يناقض نفسه فلا يبقى له حقيقة ولا يبقى له فى التصور مجال. ذلك أن الافتراض بالافتراء مبنى على افتراض نسبة الكذب إلى الرسول ومن كذب إنما يطلب فى الناس رفعة أو مكانة ينال بها فى دنياهم ما ينال. فكيف وقد بُوِّىء باختياره من ربه رسولا إلى خلقه مكانة يدرك منها أن دنياهم كلها لا تساوى عند الله جناح بعوضة. فهل يكذب من أجل بعوضتهم. وهو يعلم أى خير أرسل به وأى فضل أُعِدّ له ؟ لقد عاش صلى الله عليه وسلم فى دنياهم دون أن تمتد عينه إلى زهرتها ولو أراد منها لأعطى. وقد أُعطى فما أبقاه لنفسه بل أعطاه لغيره وآثر به سواه. وقد كان بيته يبيت الهلال ثم الهلال، ثم الهلال ثلاثة أهلة ولا يوقد فيه نار. مع أن ما يعطيه لغيره مما أفاء الله عليه يقيم القصور ويملأ الدور ويكثر الزينة والمتاع. لقد جاء رسولا من الله إلى دنياهم فما علقت به وما تعلق بها. لقد جاء مصلحا لها لا طامعاً فيها. راغبا عنها لا راغبا فيها.

فكيف به وقد عرف ربه ونال فضله يفترى عليه فيسلك بنفسه سبل ذل بعد عز.

ويمضى لظلام وهلاك بعد نور وحياة. ويرضى بضلال بعد أن نال هداه. وهو أعلم الناس بربه. وأوفاهم شكراً لنعمته وفضله.

ان من اغتنت نفسه بالحق لا يقبل الباطل. ومن عمرت نفسه بصدق الإيمان بربه لا يرضى أن يكذب على خلقه. وكيف يدع الكذب على الناس ابتغاء رضوان الله ـ ثم يكذب على الله. إنه لا يجترىء على افتراء الكذب على الله إلا من كان فى مثل حال أهـل الكفـر. فكيف بمن جاء يحارب كفرهم وينفى جحودهم ويدعوهم إلى الإخلاص فى عبادة ربهم ؟

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

(الشورى: ٢٤)

إنه الحق ولا سبيل لإتيان باطل إليه. وإنه الصدق ولا سبيل الا لتصديقه وإبعاد الكذب عن ساحته.

﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾

(الحاقة: ٤٨ ـ ٥٢)

ولا نجاة الا لمن آمن به ورضى بحكمه:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

(النساء: ٦٥)

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (الاسراء: ١٠٥)

فمعرفة الحق سبيلها رسول وكتاب. كتاب ما أُنْزل الا بالحق وما نزل إلا بالحق، ورسول أرسل بالهدى ودين الحق. وبالكتاب وبالرسول تتحدد معالم الحق للناس فى كل أمر وتعرف فى كل حكم. ومن ابتغى الهدى فى غير ما أنزل الله أضله الله. ومن حكم بغير ما أنزل الله ـ وهو يعلم حكمه ـ ايثارا لغيره واعراضا عن ذكر ربه أُخِذَ بذنبه وباء بغضب من ربه.

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (المائدة: ٤٩، ٥٠)

والحساب عسير لمن تعمد إعراضا ورغب فى غير ما أنزل الله: ﴿**إن الله بعباده لخبير بصير**﴾.

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (الكهف: ٢٩)